ج ــ دراسة تفصيلية لشاعرين قل تاثرهما بالإسلام

أ ـ الحطيئة

ب ـ متمم بن نويرة

يذكر الشاعران الحطيئة ومتمم بن نويرة حين يذكر شعر البادية الذي قلّ تأثر شعرائه بالإسلام وبالحياة العربية الجديدة بعد قيام الدولة العربية الإسلامية. وقد عدّ المبرد قصيدة لمتمم بن نويرة ضمن قصائد الرثاء الجاهلية، وعدّ الحطيئة ومتمم بن نويرة من شعراء البادية الذين لم يتأثروا بالإسلام.

أما الأول فلا نعدم أشعاراً في ديوانه فيها أثر إسلامي ولعل عده من شعراء البادية الذين لم يتأثروا بالإسلام ليس من خلال النظر إلى أشعاره أو مفرداته اللغوية، وإنما بسبب الحكم على سلوكه الذي بدا غير أخلاقي ولا منسجم مع مبادىء الإسلام وما وصف به من أنه كان فاسد الدين أو رقيق الدين كما سنذكر بعد قليل.

وأما متمم فقد ذكروا أنه أسلم وحسن إسلامه وإنما يدرج هنا بسبب كون أشعاره سائرة على نهج شعراء ما قبل الإسلام من حيث لغتها أو أخيلتها وتشبيهاتها ومعانيها، دون أن نلمح في سلوكه أو أخلاقه ما يشين أو ما يدل على مخالفته لأوامر الدين أو الدولة آنذاك. وبذا يمكن أن يدرس هذان الشاعران ليكونا نموذجين للشعراء الذين ساروا على ما اعتادوا عليه في حياتهم قبل الإسلام حتى بدت بعض الأحداث التي سنعرضها في حياة الحطيئة وكأنها حدثت في غير الزمن الذي عاش فيه ولولا وجود إشارة إلى اسم الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في حادثة الحطيئة مع الزبرقان لقلنا إنها حدثت قبل الإسلام. ولولا ما هو معروف عن سبب مقتل مالك بن نويرة أخي متمم لقلنا إنه قال قصيدته قبل الإسلام بسبب كونها منقطعة فكرياً عن العصر الإسلامي الذي قيلت فيه وعن الحدث الذي قتل فيه أخوه مالك ـ إذ قتل مع المرتدين ـ

وبذا تلزم دراسة مثل هذين الشاعرين ليكونا أنموذجين لشعراء آخرين نجعلهم مقابل أشعار شعراء عرب عاشوا في خضم الأحداث التي حدثت بعد الإسلام نعني بهم شعراء الدعوة أو الفتوح الذين نستطيع من خلال أشعارهم أن تسجل الحدث الذي قيلت فيه.

الحطيئة

تبدو أهمية دراسة الحطيئة من خلال ثلاثة محاور أما الأول فهو فني يعدّ فيه الحطيئة امتداداً لمدرسة فنية أو لمجموعة من الشعراء الذين كانوا قبل الإسلام عنوا بصياغة أشعارهم وتهذيبها وتنقيتها وتنقيحها وإجادة نظمها لغة وأسلوباً ومعاني. فهو امتداد لمذهب أوس بن حجر وبشامة بن الغدير، وزهير بن أبي سلمى، وكعب بن زهير.. وثانيهما ما عرف عن الحطيئة من ميله إلى الهجاء وتكسّبه به وثالثها: تنقله بين القبائل مدّعياً النسب يمدح هذه القبيلة إن رضي عنها ويهجوها إن تنقل بنسبه إلى قبيلة أخرى.

أما المحور الأول فلن نقف عنده ما دام ممثلاً لاتجاه فني عرف في عصر ما قبل الإسلام ودرس في حينها، وأما المحوران الآخران فلا بد أن نبدأ بمناقشتهما وتحليلهما من خلال عرض أقوال العلماء والنقّاد القدماء والمحدثين في هذا الشاعر.

لقد وصف الأصمعي الحطيئة فقال: (كان الحطيئة جشعاً سؤولاً ملحفاً دنيء النفس، كثير الشر قليل الخير، بخيلاً، قبيح المنظر رث الهيئة مغموز النسب فاسد الدين)[1].

---

(١) الأغاني ٢/١٦٣، وانظر طبقات فحول الشعراء ١٥٠، البخلاء ١٨١، الشعر والشعراء ١/ ٣٢٣.

وفي رواية أخرى وقد أنشد شعر للحطيئة أمام الاصمعي فقال (أفسد مثل هذا الشعر الحسن بهجاء الناس وكثرة الطمع)[1].

وتحدث عنه أبو الفرج الأصفهاني، وذكر أنه كان من فحول الشعراء، ومتقدميهم وفصحائهم.. ثم أضاف واصفاً أخلاقه وصفاته المشينة بقوله: وكان ذا شر وسفه، ونسبه متدافع بين القبائل وكان ينتمي إلى كل واحدة منها إذا غضب على الأخرى[2].

هذه نماذج لبعض الروايات القديمة، وقد تابعهم المحدثون في ذلك مع وجود من أشار إلى مبالغة القدماء في وصفهم للحطيئة[3].

أما ناشر الديوان ومحققه فقد دافع في أكثر من موضع في مقدمة الديوان التي درس فيها حياة الحطيئة وأدبه فقال: (إن الحطيئة رغم أقوال المؤرخين القدامى لم يكن يخلو من صفات أقلّ ما يقال فيها إنها لا تخرج من إطار الإنسانية العام الذي كاد ينتزعه منه المؤرخون الأقدمون انتزاعاً)[4].

ونبدأ بأول رسم رسمه القدماء وبعض المحدثين وهو وصفهم لجشعه وطمعه، وتنقله بين القبائل يمدح هذه، ويهجو تلك، ثم ينتقل هاجياً من كان مدحه دون أن يستشعر بشيء من الوفاء لممدوحيه السابقين ولا يعتوره خجل من تراجعه عن مواقفه السابقة، وتذبذبه بين المدح والهجاء. ويعلل الدكتور شوقي ضيف مبالغة القدماء والمحدثين في تشويه صورة الحطيئة، وذم مواقفه في هجاء الناس بأن حادثة الزبرقان هي التي شوّهته[5]. أما

---

(١) نفسه، ١٧٠.

(٢) الأغاني ٢/١٦٢.

(٣) تاريخ الأدب العربي، ضيف ٢/٩٧، في الأدب الجاهلي ٢٩٥. مقدمة ديوان الحطيئة ٥٦، شعر المخضرمين ٢٤٣.

(٤) ديوان الحطيئة، ٥٧.

(٥) تاريخ الأدب العربي، ٩٧.

محقق الديوان فإنه لم ينظر إلى هذه الحادثة على أنها دليل دناءة الحطيئة فحسب بل نراه يقول:

(إن الحطيئة لم يذنب بشأن الزبرقان، وأن الحادثة في غير حاجة إلى هذا التهويل[1]).

ولا بد أن نعود هنا إلى حادثة الحطيئة مع الزبرقان لنتتبع مختلف الروايات التي أشارت إليها ونعرف ما إذا كان الحطيئة قد أساء الأدب أو أظهر جشعاً، ودناءة لممدوح سابق له.

وبغض النظر عن الخلاف الذي ورد في الروايات المتعددة الذي يتعلق بأمور جانبية تخص الحادثة المذكورة أن مجمل الروايات تذكر بأن الحطيئة التقى بالزبرقان وسأله الأخير عن وجهته فعلم أنه يريد العراق - وكان آنذاك في المدينة - فأخبره الزبرقان بأنه إذا قبل جواره كفاه الحاجة طول عمره وأرسل معه كتاباً إلى زوجته وقيل إلى أمه في العراق لتكرمه وأنها فعلاً أكرمته وأحسنت وفادته، إلا أن ذلك أغاض بني أنف الناقة لأنهم حسدوا الزبرقان على جواره لشاعر مشهور مثل الحطيئة وكانت بينهما منافسة وخصام فعملوا على التقرّب من الحطيئة ليتحوّل إليهم مصورين له الأمر بأن زوج الزبرقان لم تحسن ضيافته ولم تعطه حق قدره فكان يجيبهم (لست بحامل على الرجل ذنب غيره فإن تركت وجفيت تحوّلت إليكم، فأطمعوه ووعدوه وعداً عظيماً). وقيل إن ابنة الحطيئة مليكة كانت جميلة وأن امرأة الزبرقان كرهت مكانها فظهرت لهم منها جفوة على حدّ تعبير ابن سلام[2].

إلا أن أبا الفرج الأصفهاني يروي المقطع الأخير من القصة منسوباً إلى

---

(١) ديوانه، ٥١.

(٢) طبقات فحول الشعراء، ٢٥٠.

ابن سلام أيضاً بأن الحطيئة حين لم يجب بني أنف الناقة على طلبهم فدسوا إلى هنيدة زوجة الزبرقان أن زوجها يريد أن يتزوج ابنة الحطيئة مليكة وكانت جميلة كاملة فأظهرت للحطيئة جفوة وهي في ذلك تداريه[1].

وتكمل الروايات القصة بأن زوج الزبرقان أرادت النجعة فقالت للحطيئة اِركب أنت وأهلك هذا الظهر[2] إلى مكان كذا وكذا، ثم اردده إلينا حتى نلحقك فإنه لا يسعنا جميعاً فأرسل إليها: بل تقدمي أنت، فأنت أحق بذلك، ففعلت وتثاقلت عن ردها إليه وتركته يومين أو ثلاثة، وألحّ بنو أنف الناقة عليه وقالوا له: قد تركت بمضيعة. فلما ألحوا عليه أجابهم وأما الآن فنعم أنا صائر معكم فتحمل معهم وضربوا له قبة وربطوا بكل طنب من أطنابها حلة هجرية، وأراحوا عليه إبلهم دليل احتفائهم به وإكرامهم له، كما أكثروا له من التمر واللبن وأعطوه لقاحاً وكسوه[3].

وأراد بنو بغيض الوصول إلى غرضهم الرئيسي في تحريض الحطيئة ليهجو الزبرقان، فقال لهم: لست بهاجيه، ولا ذنب له فيما صنعت امرأته ولكني ممتدحكم، وذاكر ما أنتم له أهل وهكذا يحاول الحطيئة أن يتهرّب من هجاء الزبرقان متعللاً بالعلّة السابقة نفسها في أن لا ذنب للرجل فيما جنته امرأته إلا أن الزبرقان يرسل إلى رجل من بني النمر بن قاسط ليهجو بغيضاً، وفي هجائه لهم يعرض بالحطيئة وإن بني أنف الناقة لا شرف قديم لهم، ولا حديث سوى أن الحطيئة نزل فيهم وامتدحهم يقول النمر بن قاسط:

وما أضحى لشماس بن لأي قديم في الفعال ولا رياء
سوى أن الحطيئة قال قولاً فهذا من مقالته جزاء[4]

---

(١) الأغاني ٢/١٦٩.
(٢) الظهر: الدابة.
(٣) انظر الأغاني ٢/١٦٩.
(٤) ديوانه، ٩٥.